مقدمة

نشأت مفاهيم الفن والتربية وتطورت فى مصر فى العصر الحديث على غرار ما نشأ وتطور من مفاهيم فى الغرب ـ فى أوربا وأمريكا ـ تلك المفاهيم التى تأكدت مع ظهور الكلاسيكية العائدة فى فرنسا والتى كان لها دور كبير فى تحول الفكر والثقافة الغربية بالعودة والتمسك بالمثالية اليونانية · ولعلنا نستطيع القول بأن الغرب ظل ولفترة طويلة متأثرا بهذه الثقافة اليونانية حتى أن نظرته الجمالية قد تحددت ملامحهـــا مع كل ما يتطابق ويتفق مع فلفســـات الاغريق والرومان في الفكر والفن · أما فنون الشرق والفنون البدائيـة فلم يكن لها موضع فى تذوق الغرب الجمالى بل كان ينظر اليها والى وقت قريب على أنها فنون جامدة وغير مكتملة تمتلىء بالأخطاء للتشويه الموجود فى نسبها وأبعادها ·

انتقلت هذه النظرة الجمالية من الغرب الى مصر ، ونشأت معاهدنا وكلياتنا الفنية على نفس الغرار الأوربى وتحولنا لنرى الجمال فيما يراه الغرب ونتذوق ما يتذوقه الغرب وأصبح تراثنا الفنى المصرى القـــديم والقبطى والاسلامى والشعبى يعبدا عنا بل انه من شـــدة تأثير الفلسفة الجمالية الغربية فى تحويل أذواقنا تحولت معها أيضـا عيوننا وأصبحنا لا نرى الجمال فى تراثنـــا الفنى وظللنا متمسكين حتى اليوم بجماليات الغرب ، على حين أن الغرب قد أفاق من صحوته واستطاع أن يتخلص من تلك الأسطورة التى تتمثل فى المثالية اليونانية ومازال يحاول التخلص منها نهائيا حتى اليوم · ذلك أن هذه المثالية حدت بفنونه الى أن تصـل الى مرحلة من الجمود والركود · فانطلق الفنانون الغربيون يكتشفون من جديد فى فنـون الشرق والفنـون البدائية مظاهر لم يدركوها تحت وطأة

وتخدير المثالية اليونانية فاندفعوا ينهلون من هذه المنابع الجديدة بما فيها من قيم ابتكارية جمالية لم يألفوها من قبل ، وفى اطار هذا التحول تحولت أيضا التربية الفنية التى ارتبطت هي الأخرى سنين طويلة بذلك الفكر اليونانى وتم الاعتراف بفن الطفل وظهرت مرحلة جديدة ومفهوم جديد من مفاهيم التربية الفنية وهو « التعبير الحـــر » وأصبح الطفل هو محور العملية التعليمية والهدف ، بعد أن كانت المادة هي الغاية والهدف · كان الأطفال يتعلمون الفن داخل الفصل من منابع اعدت خصيصا لهم تتمثل فى شكل أمشق ونماذج يتدربون على نقلها ومحاكاتها · ولم يكن يسمح للطفل أن يتخذ غيرها منبعا لرؤيته ، أما تحت شـــعار التعبير الحر فقد اتسعت منابع الرؤية للطفل وتخطت جدران الفصل والمدرسة لكى تنهل من مظاهر البيئة والثقافة ·

ان المشكلة التى تواجه التربية الفنية اليوم هى انها مازالت تحمل مفاهيم انحـدرت من الغرب سنين طـويلة ، ومع أنهـا تحللت من كثرة الأبحاث حول صدقها وموثوقيتها الا اننا مازلنا نصر على الاحتفاظ بها ، ومازالت تحتل مكانا بارزا فى مناهجنا للتربية الفنية حتى اليوم ، ولقد احتوت هذه المفاهيم شعارات عن « الابتكار » و « الأصالة » و « الحرية » و « شخصية التلميذ » و « البعد عن التقليد والمحاكاة » وعلى هذا فقد انطبع فى أذهاننا نحن المربين عن طريق الفن شكل وهيئة متعارف عليها عن ما هو « فن الطفل » وأخذنا تحت هذه الشعارات نهتم بكل ما هو مرتبط بها وما عدا ذلك تجاهلناه وأغفلنا النظر عنه حتى تحول فن الطفل الى وضع أكاديمى شأنه شأن أى حركة فنية ظهرت وكان فى ظهورها اثارة ثم استتبت ورسخت فتحولت الى نظام فقدت معه تلك الاثارة التى بدأت بها · الأمر الذى أصبح يحتاج الى اعادة البحث والايضاح · فقد أتحنا للطفل كى يعبر عن نفسه دون تدخل من مدرسه حتى أننا تحت زعم الأصالة والابتكار وحتى لا نؤثر عليه أو « نلوث » تعبيره بأن نجعله ينقل أو يقلد

أو أن يتدخل مدرسه لكى يعلمه كيف يرسم هذا الشيء أو ذاك أصبحنا كمن يخفى رأسه ويترك جسده عاريا ، حتى اننا نوجه مدرس التربية الفنية حين يعرض الوسيلة التعليمية على تلاميذه ان يعرضها فى الوقت المناسب لما لها من خطورة ، وحتى لا يتأثر بها التلميذ وتكون سببا من أسباب سعيه وراء النقل أو المحاكاة · الأمر الذى يقلل من اصالته ومن نمو شخصيته · وعلى هذا أصبح مدرس التربية الفنية كلاعب الاكروبات يظهر الوسيلة لتلاميذه بسرعة خاطفة ثم يخفيها خلف ظهره حتى لا « يتلوثوا » بما فيها أو أن تكون سببا يفرض عليهم نمطا أو أسلوبا أو طريقة معينة فى التعبير · وتخيلنا بذلك أن التلميذ ما هو الا قطعة من الاسفنج جاهزة لامتصاص الماء · وهنا تبرز تساؤلات عديدة ، فمثلا هل بعرضنا الوسيلة التعليمية على التلميذ ثم اخفائها حتى لا يتأثر بها يساعده ذلك على أن يعبر عن ذاته وألا يكون ناقلا أو محاكيا ؟ وهل التعبير الفنى أو التعبير فى الفن يخضع لعامل الرؤية المباشرة ؟ أو بمعنى آخر هل الادراك البصرى فقط كاف للتعبير الفنى ؟ وما هو دور الرؤية السابقة بما تحتويه وتختزنه من صور وانطباعات بصرية محفورة فى الذهن والتى لا نستطيع نسيانها بل وتظل تعمل فى مخيلتنا ، كما نستطيع استدعاءها فى اى وقت نشاء حتى ولو كانت هذه الانطباعات البصرية حدثت فى المراحل الأولى من حياتنا ؟ ما هو دور الرؤية السابقة على التعبير الفنى ؟ المعروف أن عملية الادراك البصرى تتم لما نمتلكه من خصائص للابصار ، أى اننا ما دامت لنا عيون فاننا سوف نبصر كل شيء أمامنا هل هذه حقيقة ؟ أم أن هناك أشياء على الرغم من رؤيتنا لها لا نستطيع تفسيرها أو حتى فهم معناها ؟ ·· اننا نراها ولكن لا نهتم أو ربما لا نفهم كنهها أو محتواها ـ هل للثقافة بما تحتويه من تقاليد وعادات ودين دور فى تشكيل رؤيتنا للأشياء الأمر الذى يجعلنا ننظر وندرك من خلال هذه العوامل ؟ أم أن البيئة بما تحتويه من تضاريس ومناخ تؤثر فى هذه الرؤية ؟

البعض يقول أن النمو فى عملية الرسم يرتبط بالنمو المعرفى والذكاء والبعض الآخـر يقول أن نمو الرســـم ما هو الا نمو فى الرؤية البصرية والادراك ، وبعض ثالث يقول أن نمو الرسم لا يتم الا من خلال برنامج وكلما تدرب الانسان على العديد من هذه البرامج استطاع أن يطبقها فى أى عملية تتصل بالرسم · ونعود لنتساءل · اذا كان تعلم الرسم والنمو فيه يتم من خلال برامج يتدرب عليها الفرد ويختزنها بطريقـة الكمبيوتر ليخرجها وقت الحاجة اذا هل نعود ثانية لكى نعلم التلاميذ كيف يرسمون ؟ أى أن يكون التعليم من خلال نماذج معدة لكى تصبح منبعا للرؤية ؟

ان منبع الرؤية فى الفن لا يمكن قصره على التعليم فقط فنحن نتعلم الفن من خلال التعايش فى بيئة معينة وثقافة ذات طابع مميز · والبيئة التى يحيا فيها الطفل أو منتج الفن أو الفنان لها تأثيرها على نوع الانتاج فالأنهار والجبال وسطح الأرض وتضاريسها ومناخها انما يؤثر فى نوع الرؤية وادراك الأشكال والأحجام الموجودة فى هذه البيئة ، كما أنه توجد أيضا البيئة المصنوعة وهى التى تتمثل فى كل ما أنتجه الانسان من نماذج وأشكال كالمنازل والمصانع والمركبات والطرق والأنفاق وغيرها والعلاقة بين البيئة الطبيعية والبيئة المصنوعة تتفاوت · ففى العصر الذى نعيشه ربما طغت البيئة المصنوعة على الطبيعية حتى أن شكل البيئة الطبيعية قد تلاشى لدى الكثير فلم يعد من السهل عليهم أن يروها أو يحيوها ، فقد أصبحت غريبة بالنسبة لهم نظرا لطغيان البيئة المصنوعة على الانسان فى كافة مناشط حياته ·

أما الثقافة بما تحتويه من تراث فنى من أشـــكال ونماذج مرئية وملموسة الى جانب ما انحدر من أفكار وتصورات داخل هذه الثقافة فانها بلا شك تحـدد مســار الرؤية للفنـان بل أنها تفرض نوعا معينـــا فى الرؤية ، فالثقافة تتحكم فى رؤية الفنان ونظرته الى بيئته · ولعل التاريخ

يطالعنا بأمثلة على ذلك ، فمصر مثلاً بجوها وطبيعة أرضها ظلت ولا زالت تحتفظ بالكثير من معالمها الدائمة ـ أى بشمسها ، ونيلها ، وجفاف جوها ، ودفئها ، وضيائها ومع هذا يطالعنا الفنان على مراحل حضارتها وتاريخها برؤية تختلف فى مظهرها ، بل وتتميز هذه الرؤية فى كل مرحلة من مراحل حضارتها بشكل معين وطابع مميز على الرغم من أن مصر هى مصر · فاشكال الفن المصرى القديم تختلف عن أشكالها فى الفن القبطى وكذلك الاسلامى ، ولعل صانع هذه الحضارات المختلفة والمساهم فى انشائها هو الفنان المصرى · أى أنه مصرى قديم فى مرحلة ، ومصرى قبطى فى مرحلة ثانية ، ومصرى اسلامى فى مرحلة ثالثة · ما السبب اذا وراء تغير هذه الرؤية ؟ هذا ما نود الكشف عن بعض حقائقه فى هذا الكتاب · فنعرض فى فصوله الأولى اثر البيئة على الرؤية الفنية مستعرضين فى ذلك كيف اثرت البيئة على الفنان المصرى القديم وكيف أن بيئة مصر بما تتميز به من مظاهر كسطح الأرض والمناخ كان لها اكبر الأثر فى تشكيل رؤية الفنان ونوعية الانتاج سواء فى العمارة أو الفنون ـ ثم بعد ذلك أستعرضنا ايضا دور نفس البيئة على رؤية الفنان المصرى الاســـلامى وكيف انه استطاع الاستفادة من خصائصها فى خلق أشـــكال جديدة ترتبط بالفكر والفلسفة الاسلامية · وفى فصـــول أخرى نستعرض اثر الثقافة على الرؤية الفنية ودورها العام فى تشكيل وتوجيه رؤية الفنان أو منتج الفن · وحتى يتضح معنى الثقافة افردنا لذلك عرضـــا موجـزا عن معنى الثقافة وتعريفاتها وعرض بعض نظرياتها مع محـــاولة رؤية الثقافة فى مصر على ضـــوء النظريات الثقافية المختلفة · وكيف أن أشكال الثقافة تنتقل من عصر الى عصر ، ومن فن الى فن ، ومن فنـــان الى فنـــان · وكيف أن الفن يعيش ويتغذى على الفن · كما نعرض فى هـــذا الكتاب ايضـــا مكانة الفن فى التعليم وكيف تتابعت مراحل التربية الفنية فى مصر فى العصر الحديث ،

وكيف أن هذا التطور كان من شأنه خلق مشكلات صادفت كلا من التلميذ والمدرس والمدرسة .

حاولنا في تناولنا لموضوع هذا الكتاب الاستفادة من نماذج لأبحاث قام بها المؤلف بهدف الوصول الى براهين وأدلة تساعدنا على تقديم عرض وجهة نظرنا : وهذه الأبحاث نعرضها لكي نكشف عن حقائق ربما لم يحاول أحد الكشف عنها من قبل وهي أبحاث تظهر عمق وأصالة منتج الفن في مصر ، وتوضح عمق ثقافتنا المصرية التي أمتدت آلاف السنين .

وتجدر الاشارة الى ملاحظة لفتت نظري ، فبينما كنت أجلس في أحد فنادق الاسكندرية في يوما ما شاهدت لوحتين معلقتين على جدران صالة الاستقبال في الفندق ـ اللوحة الأولى يظهر فيها وجه أخناتون ، ذلك الملك المصري القديم ، يظهر بوجهه الذي يحمل صفة البشر ، ولكن تعلوه مسحة روحانية تجلت في تلك الاستطالة التي تضفي على ملامحه سمة للروحانية ، وقد كتب أسفل اللوحة باللغة الانجليزية ما معناه بالعربية «مصر مهد التوحيد» . أما اللوحة الثانية المعلقة بجانبها على نفس الجدار فقد كتب عليها عبارة لا اله الا الله بخط عربي رزين عكس فيه الخطاط سمو المعنى الذي تتضمنه تلك العبارة . وعلى الرغم من أن اللوحتين المعلقتين بجوار بعضهما تظهران للرائي والمتفرج متقاربتين في الوضع ومعلقتين على حائط واحد الا أن ما بين اللوحة الأولى واللوحة الثانية رحلة عمر استغرقت آلاف السنين . رحلة سعت فيها مصر جاهدة في شوق وأمل لتحقيق هذا الحلم وهو الوحدانية . أي السعي وراء الوصول الى الاله الواحد الأحد . هذه الرحلة الطويلة التي تظهر على حائط الفندق والتي تتمثل في تلك اللوحتين بنظرة خاطفة لا تستغرق أكثر من ثوان أو لحظات أنما قد استغرقت دهورا من الزمان ... تلك هي مصر

ممتده جذورها امتداد الزمان راسخة ، موصوله حلقاتها ، كما أن أنسانها انسان يحمل فى طياته ويكتنز رحلة طويلة ساعيا وراء الحب والحياة ٠

وبعد فأرجو أن يكون هذا الكتاب اسهاما متواضعا فى ميدان الفن والتربية الفنية واستكمالا لبناء أقام صرحه أساتذة أجلاء سبقونا فى هذا الميدان ان ما تحتاجه التربية الفنية اليوم هو اعادة النظر بتقييم دورها تقييما علميا مستندا الى البحث والدراسة ٠ واذا كان هدفنا التطوير فلابد أن نرتكز فى تطويرنا على تلك الأبحاث التى تكشف عن حقائق ومعلومات تتصل ببيئتنا وثقافتنا وتراثنا ٠

ويسرنى فى ختام هذه المقدمة أن أقدم خالص شكرى وتقديرى لكل من استعنت برسومهم من طلاب كلية التربية الفنية ـ جامعة حلوان ٠ وطلاب التربية الفنية ـ جامعة ولاية بنسلفانيا ـ بامريكا ٠

كما أخص بالشكر الأستاذ/عبد السلام الخميسى على مراجعتـــــه للغة الكتاب ٠ كما أقدم خالص تقديرى لزوجتى لمعاونتها فى اخراج هـذا العمل الى حيز الوجود ٠

والله ولى التوفيق ؟

المؤلف

الهرم فى يوليو ١٩٨٠